المستوعب في شرح رسالة القواعد الأربع

شرح وتعليق

عبد القادر بن مُحَمَّد بن عبد الرحمن الجنيد

المُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عُدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فهذا شرح لرسالة "القواعد الأربع" لشيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ للشيخ عبد القادر بن مُحَمَّد الجنيد ـ حفظه الله تعالى ـ.

وقد كان ابتداء شرحها في يوم الجمعة: (١٦/ ٤/ ١٤٢٥هـ) بعد صلاة الفجر.

وبعد كتابتي للشرح، ودفعه إليه، راجعه، وزاد فيها ما تيسَّر.

وكتب ذلك:

علي بن يوسف الحدادي.

متن الكتاب وشرحه

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آل كُلٍّ وصحابتهم وأتباعهم مِن المؤمنين.

وبعد:

فقد قال الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ في رسالته العظيمة النافعة «القواعد الأربع»:

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أنْ يتولاك في الدنيا والآخرة، وأنْ يجعلك مباركًا أينما كنت، وأنْ يجعلك مِمَّن إذا أُعطِي شَكر، وإذا ابتُلِي صبَر، وإذ أذْنَب استَغفر، فإنَّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.]

الشرح:

بدأ المُصنِّف ـ رحمه الله ـ رسالته هذه بأمرين:

الأوَّل: البسملة.

وهذه سُنَّة الرسائل، وقد سنَّها النبي ﷺ.

حيث أخرج البخاري في "صحيحه" (٧) مِن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن أبي سفيان بن حرْب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه جاء في كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه إلى هِرقل عظيم الرُّوم:

((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، ...)) إلى آخِر الرسالة.

وقد كانت رسالة «القواعد الأربع» تُرسَل إلى الأُمراء والعلماء وأئمة المساجد، وإلى أهل المدن والقُرى والبوادي، فتُقرأ عليهم.

فجَرَت بذلك مجرَى الرسائل، فأخذت سُنَّتها.

والثاني: الدعاء لقارئها، ولِمُستمِع قراءتها.

وهذه عادةٌ للمُصنِّف ـ رحمه الله ـ في كثير مِن كتبه.

ودعاء أئمة أهل السُّنة والحديث لِقُرَّاء كُتبهم في أوائلها، أو في أثنائها، مشهورٌ معروف، فعلَه كثُر.

ومِمَّن فعلَه:

أوَّلًا ـ الإمام أبو بكر الإسماعيلي الشافعي ـ رحمه الله ـ في رسالته «اعتقاد أئمة الحديث».

وثانيًا ـ الإمام أبو الحسن البربهاري الحنبلي ـ رحمه الله ـ في كتابه «شرح السُّنة».

وثالثًا ـ الإمام ابن أبي زمَنِين المالكي ـ رحمه الله ـ في كتابه «أصول السُّنة».

ورابعًا ـ الإمام أبو عثمان الصابوني ـ رحمه الله ـ في كتابه «عقيدة السَّلف أصحاب الحديث».

ومِن فوائد هذا الدعاء:

إيناس طالب العلم، وتحسين الكلام لَه، لأجل أنْ يُقبِل على ما يَقرأ مِن العلم، ويَهتمَّ بِه.

وقول المُصنِّف ـ رحمه الله ـ: [أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم].

دعاءٌ لله، وتوسلٌ إليه سبحانه بأسمائه وصفاته، وأمثلته كثيرة في نصوص القرآن، والسُّنة النَّبوية، وآثار الصحابة.

ومشروع بالقرآن، والسُّنة، والإجماع.

وقوله ـ رحمه الله ـ: [أنْ يتولاك في الدنيا والآخرة].

أي: يتولاك في الدنيا، بأنْ يُوفِّقكَ لِطاعته، والسَّيرِ على الطريق الذي يُرضيه عنك، وهو الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ويُيسِّرَ لك أمور معاشِك، ويَكفيكَ ما أهمَّك، ويُبارِكَ لك فيما أعطاك.

ويتولاك أيضًا في الآخرة: بأنْ تُنعَّم في قبرك، وتُكرَم بجنَّته، ورضاه، والنَّظر إليه سبحانه.

وقد قال ـ جلَّ وعلا ـ: { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }.

وقال يوسف ـ عليه السلام ـ شاكرًا لِربّه وداعيًا: { أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }.

وقوله ـ رحمه الله ـ: [وأنْ يجعلك مباركا أينما كنت].

أي: أنْ يجعلَ فيك بركةً في أيِّ مكان كنت فيه، بركةً لِنفسك، فتكون مِمَّن يعمل بطاعة الله حيثما كنت إلى أنْ يَتوفَّاك، وبركةً لِغيرك، فينتفع بك كل مَن جالسك في أمْر دُنياه وآخِرته.

وأقربُ الناس إلى هذا الحال هُم أهل العلم والفقه في شريعة الله، الرَّاسخين الأثبات، حيث تراهم أكثر الخلق عملًا بشريعة الله، وأعظم الناشرين لأحكامها، وأبرز المصحِّحين لانحرافات الناس، وأوائل الرَّادِّين لِضلالات أهل البدع والأهواء، ومُنكرات أهل الفساد والفُجور والمجون، وتغريبات أهل الإلحاد والزَّندقة.

وأصدق الناس نُصحًا، وأحسنهم مشورة، ويَطمئن الناس إليهم أعظم مِن غيرهم.

وقد قال نبيُّ الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ مُمتنًّا لِربّه سبحانه وهو في المهد: { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا }.

ولَمَّا كانت البركة مِن الله، ـ والتي هي: النَّماء والزيادة ـ طلبها المصنِّف ـ رحمه الله ـ لِقُرَّاء كتابه مِن الله ربِّه وربِّهم.

وقد أخرج البخاري (٥٦٣٩)، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن جابر ـ ﷺ ـ أنَّه قال: ((قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حَضَرَتِ العَصْرُ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرَ فَضْلَةٍ، فَجُعِلَ فِي إِنَاءٍ فَأُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ وَفَرَّجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى أَهْلِ الوُضُوءِ، البَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ.

قُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ)).

وقوله ـ رحمه الله ـ: [وأنْ يجعلك مِمَّن إذا أُعطِي شَكر، وإذا ابتُلِي صَبر، وإذ أذْنَب استغفر، فإنَّ هؤلاء الثلاث عنوان السعادة].

أي: أنْ يُكرِمكَ فيَجعلكَ:

ـ مِمَّن إذا أنعَم الله عليه بنعمةٍ دِينية أو دنيوية شَكر اللهَ عليها بقلبه، بأنْ يَعتقد أنَّها مِن عند الله، وحصَلت بفضله.

وشَكر اللهَ عليها بلسانه، بأنْ يَحمده عليها سِرًا وعلنًا.

وشَكره بجوارحه، بأنْ يَصرفها في الخير، وإليه، ونُصرته.

ـ ومِمَّن إذا ابتُلِي في دِينه أو بدَنه أو ماله أو أهله أو عِرضه أو غير ذلك صبَر ابتغاءً للأجر، ورضًا بقضاء الله.

ـ ومِمَّن إذا أذنَب استغفر ربَّه مِن هذا الذَّنب.

ومَن حقَّق هذه الثلاث، وكان مِن أهلها، فسَيَسعد في دُنياه وأُخْراه.

وقد أمَر الله بها في مواضع عديدة مِن كتابه، وأثنى على أهلها، وتكاثرت فيها آيات القرآن، ونُصوص السُّنة النَّبوية.

وقد قال الإمام ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ في أوَّل كتابه "الوابل الصَّيِّب" (ص:٥)، عن هذه الثلاث دعوات، وسبب الجمع بينها:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الله سبحانه وتعالى المسؤول المرجُو الإجابة أنْ يتولاكم في الدنيا والآخرة، وأنْ يُسبِغ عليكم نعمَه ظاهرة وباطنة، وأنْ يجعلكم ممَّن إذا أنعَم عليه شَكر، وإذا ابتُلِي صبر، وإذا أذْنَب استغفر.

فإنَّ هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأُخراه، ولا يَنفك عبدٌ عنها أبدًا، فإنَّ العبد دائم التقلُّب بين هذه الأطباق الثلاث».اهـ

ثُمَّ بسَط ـ رحمه الله ـ شرحها.

قلت:

والموحِّد بحاجة شديدة إلى هذه الدعوات، التي دعا المصنِّف ـ رحمه الله ـ له بها، لاسِيَّما في هذه الأزمان، لِقلَّة الموحِّدين، وقِلَّة تدريس التوحيد، وضَعف التحذير مِن الشِّرك، وكثرة الشُّبَه حول التوحيد والشِّرك، وتزايد وتطاول وتمكين دعاة الشِّرك والبدع والضَّلالات.

فهو بحاجة إلى أنْ يتولاه الله، فيحفظَ عليه توحيده إلى مماته، ويَكفيَه شَرَّ الشِّرك والبِدع، ودعاتهما، وتلبيسهم.

وبحاجة أنْ يكون مُبارَكًا حيثما كان، ومع كل مَن جالس، وفي سفره وإقامته، فيَنفَعَهم بالتوحيد، ويُصحِّح لَهم ما حصل فيه مِن خَلل، ويُرهِّبَهم مِن الشِّرك، ويُبيِّن لَهم التوحيد والشِّرك، وأحكامهما، ويُثبِّت إخوانه الموحِّدين عليه.

وحقيقٌ بِه أنْ يَشكُر ربّه على عطائه العظيم، حيث جعله مُوحِّدًا لا مُشرِكًا، وعرَّفه التوحيد مِن الشِّرك، وأدلَّتَهما، وأهلهما.

وقد قال الكريم يوسف ـ عليه السلام ـ لِلسجينين معه، مُمتنًّا لِربّه وشاكرًا على نعمة التوحيد والسلامة مِن الشِّرك: { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ }.

وقد يُبتلَى الموحِّد على تمسُّكه بتوحيده حتى مِن أقرَب الناس إليه، وهُم أهله وعشيرته وقبيلته وأهل بلده، فكيف إذا دعاهم إليه، وكانوا أهل شِركيات، فقد يَزداد البلاء عليه أكثر، ويُؤذى أشد ويُنبذ، فمُناسب أنْ يُدعَى لَه بأنْ يُصبِّره الله على ما يناله مِن أذى.

وهو أيضًا كغيره يحصل مِنه الذَّنْب، إذ كلُّ ابن آدم خطَّاء، وخيرهم مَن يتوب، فناسَب أنْ يُدعَى له بأنْ يكون مِن المستغفِرين.

والنبي ﷺ هو إمام الموحِّدين وأفضلهم، وقد كان كثير الاستغفار في يومه وليلته.

حيث أخرج البخاري (٦٣٠٧) عنه ﷺ أنَّه قال: ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)).

وأخرج مسلم (٢٧٠٢) عنه ﷺ أنَّه قال: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)).

ثُمَّ قال الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ:

[اعلم أرشدَك الله لطاعته:

أنَّ الحنِيفيَّة مِلَّة إبراهيم: أنْ تَعبد الله وحدَه مُخلِصًا له الدِّين.

كما قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }.

فإذا عرَفت أنَّ الله خلقك لِعبادته، فاعلم أنَّ العبادة لا تُسمَّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أنَّ الصلاة لا تُسمَّى صلاة إلا مع الطهارة.

فإذا دخل الشِّرك في العبادة فسَدت، كالحدَث إذا دخل في الطهارة.

فإذا عرَفت أنَّ الشِّرك إذا خالط العبادة أفسَدها، وأحبَط العمل، وصار صاحبه مِن الخالدين في النار.

عرَفت أنَّ أهَمَّ ما عليك معرفة ذلك، لعلَّ الله أنْ يُخلِّصَك مِن هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، الذي قال الله تعالى فيه: { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }.

وذلك بمعرفة أربع قواعد ذَكرها الله تعالى في كتابه.]

الشرح: ـــــــــــــــــــ

قول المُصنِّف ـ رحمه الله ـ: [اعلم أرشدَك الله لطاعته].

"اعلم" كلمة يُؤتَى بها عند الأشياء المهمة التي يَنبغي للمتعلِّم أنْ يُصغِيَ إليها، ويَهتمَّ لِشأنها.

وما قرَّره المصنِّف ـ رحمه الله ـ بعد هذه الكلمة يَتعلق بأعظم أمور الدِّين، وهو التوحيد، فحقيقٌ أنْ يُهتمَّ بِه أشدَّ اهتمام، ويُعتَنى بِه أشدَّ اعتناء، ويُصغَى إليه حقيقة الاصغاء.

ومِن قَبيل ذلك قول الله تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ }.

وقوله ـ رحمه الله ـ: [أنَّ الحنِيفيَّة مِلَّة إبراهيم:

أنْ تَعبد الله وحدَه مُخلِصًا له الدِّين، كما قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }.].

أي: اعلم أنَّ الحنيفية التي هي مِلَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هي:

أنْ تَعبد الله وحدَه مُخلِصًا له الدِّين.

يعني: أنْ تكون عباداتك كلها لله وحدَه، لا تُشرِك فيها معه أحدًا، ومُبتغيًا بها وجْهَه سبحانه، لا رياء فيها ولا سُمعة.

ومِن دلائل ذلك قول الله تعالى في أواخِر سورة الذَّاريات: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }.

ووجْه كون هذه هي الحنِيفيّة:

أنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال لقومه المشركين بالله في عبادته كما في سورة الأنعام: { يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) }.

فتَبرَّأ ـ عليه السلام ـ مِن إشراك قومِه مع الله غيرَه في عبادته، وأنكَر ذلك عليهم، وحاجَّهم فيه، وأخبَرهم أنَّه توجَّه إلى الله وحدَه بجميع عباداته.

والحَنيف هو: المقبِلُ على الله تعالى وحدَه بجميع عباداته، المجانِبُ لكل ما يُسخِطه، الثابتُ المستقيم على ذلك إلى مماته.

ولِهذا أمَر الله باتِّباع هذه المِلَّة، فقال سبحانه: { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

وأثْنى على أهلها، فقال تعالى: { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }.

وأكذَبَ اليهود والنصارى في زعمِهم أنَّهم عليها، فقال سبحانه: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

وأمَرَ سبحانه رسوله محمدًا ﷺ أنْ يقول للناس: { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

وقوله ـ رحمه الله ـ: [كما قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }.

فإذا عرَفت أنَّ الله خلقك لِعبادته، فاعلم أنَّ العبادة لا تُسمَّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أنَّ الصلاة لا تُسمَّى صلاة إلا مع الطهارة.].

أي: إذا عَرفت بقول الله تعالى: **{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ }** أنَّ الله ـ جلَّ وعزَّ ـ لم يَخلقك ويَخلق غيرك مِن الإنس والجن إلا لأجل عبادته وحدَه، بصَرْف جميع العبادات لَه سبحانه، وعدمِ إشراك غيره معه في شيء مِنها.

فاعلم مع ذلك شيئًا مُهمًّا تحتاج إليه في عبادتك لِربِّك، ولا تقوم عبادتك إلا عليه، ولا تصِحُّ إلا بِه، ألَا وهو:

«أنَّ العبادة لا تكون عبادة لله، ولا يكون صاحبها عابدًا لله تعالى، إلا مع التوحيد».

ووجْه ذلك:

أنَّ التَّوحيد هو: إفراد الله وحدَه بجميع العبادات.

فلا تُصلِّ ولا تَصوم ولا تَحج ولا تَذبح ولا تَنذر إلَّا له، ولا تَطوف إلَّا له، وأين يكون طوافك هذا؟ إنَّه حول الكعبة المعظَّمة، لا حول قبر أحدٍ مِن الخَلْق وضريحه، ولا تتوجَّه بعبادة الدُّعاء وتَصرِفُها إلَّا إليه وحدَه، فتستغيث بِه وحدَه، وتستعيذ بِه وحدَه، وتَطلب المَدَد والعَون والنُّصرة مِنه وحدَه، وتَسألُه وحدَه تفريج الكُرَب وإزالتَها، ولا تَطلُب شفاعة أحدٍ لك يوم القيامة إلَّا مِنْه، ولا تَدْع بجَلب أيِّ نفعٍ أو دفع أيِّ ضُرٍّ إلَّا إيَّاه.

والشِّرك هو: صَرْفُ العبادة أو شيءٍ مِنها لِغير الله.

فمَن صَرَف عبادته أو شيئًا مِنها ـ حتى ولو كانت عبادة واحدة ـ لغير الله فهو مُشرِك، ومِن أهل الشِّرك، الذين هُم أهل النَّار خالدين فيها أبدًا.

وعليه:

فالذي لا يُفرِد اللهَ وحدَه بجميع عباداته يكون مشركًا، ويكون صرفُه العبادة لغير الله شِركًا وكفرًا.

ومَن أفرَد ربَّه بجميع عباداته، فهو عابدٌ لله، ويكون قد حقَّق العبادة التي خلقه الله لأجلها، وأنزل بها كتبه، وأرسَل للأمر بها جميع رُسله.

والمخلِص لله دِينه، لا يَصرِف عبادته إلا لِربِّه.

لأنّ الإخلاص هو: أنْ تَصرِف العبادة لله وحده، ابتغاء وجْهه.

ومَن صرفها لغير الله فلا يكون قد عبَد الله، بل عبَد غيره، وتكون عبادته شِركًا لا توحيدًا، ويكون مُشرِكًا لا مُوحِّدًا مُخلِصًا.

ولهذا قال المُصنِّف ـ رحمه الله ـ:

[فاعلم أنَّ العبادة لا تُسمَّى عبادة إلا مع التوحيد.].

وشرطُ إفرادِ الله وحدَه بجميع العبادات شرطٌ لصِحتها جميعًا، ولا تقوم إلا عليه، ولا تنفع إلا بِه، مِثل شَرطِ الطهارة للصلاة، حيث لا تصِح، ولا تنفع عند الله إلا بِه، بدَلالة النَّص والإجماع المُستفيضَين.

ومَن أتَى بجميع أقوال وأفعال الصلاة مِن غير طهارة فلا يُعتبر ما فعله صلاة، بل عبثًا وباطلًا.

وقوله ـ رحمه الله ـ: [فإذا دخل الشِّرك في العبادة فسَدت، كالحدَث إذا دخل في الطهارة.

فإذا عرَفت أنَّ الشِّرك إذا خالط العبادة أفسَدها، وأحبَط العمل، وصار صاحبه مِن الخالدين في النار.

عرَفت أنَّ أهَمَّ ما عليك معرفة ذلك، لعلَّ الله أنْ يُخلِّصَكَ مِن هذه الشَّبكة، وهي الشِّرك بالله، الذي قال الله تعالى فيه: { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }.

وذلك بمعرفة أربع قواعد ذَكرها الله تعالى في كتابه.].

أي: فلمَّا كان إفراد الله وحدَه بجميع العبادات شرطًا في صِحَّة جميعها، كان نقيضه وهو الشِّرك الأكبر، ـ **الذي هو:** تشريك غير الله مع الله في شيء مِن عبادته ولو كانت عبادة واحدة ـ مُبطلًا ومُفسِدًا لجميعها.

حيث قال الله سبحانه في تقرير إفساد الشِّرك لجميع عبادات فاعله في سورة الأنعام: **{ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.**

وقال ـ جلَّ وعلا ـ في سورة الزُّمر: **{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ }.**

كما أنَّ الحَدَث ـ وهو: نواقض الوضوء ـ يُفسِد الصلاة بالنَّص والإجماع.

وقد أخرج البخاري (١٣٥)، ومسلم (٢٢٥)، عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: ((لاَ تُقْبَلُ صَلاَةُ مَنْ أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ)).

وأخرج مسلم (٢٢٤) أيضًا عنه ﷺ أنَّه قال: ((لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ)).

ومَثَّلَ المصنِّف ـ رحمه الله ـ بالصلاة وشَرطِ الطهارة مِن باب التقريب وزيادة التوضيح، وإلا فشرط التوحيد أعظم، لأنَّ العبادة مِن دون توحيد كُفر وشِرك بالاتفاق، والصلاة مِن غير طهارة معصية عند جماهير العلماء.

قلت:

وما تقدَّم مِن حُبوطِ عبادات مَن أشرَك مع الله غيره في شيء مِن عبادته إنَّما هو أحد عقوبات الشِّرك الأكبر الشديدة الأليمة.

ولَه أيضًا عقوبات أُخرى:

فمِن عقوباته الشديدة الأليمة أيضًا:

أنَّ صاحبَه مِن الظالمين الذين حرَّم الله عليهم دخول الجنَّة، وجعل مأواهم النَّار، وبئس المصير، حيث قال الله سبحانه: { إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ }.

وأخرج مسلم (٩٣) عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ)).

ومِن عقوباته الشديدة الأليمة أيضًا:

أنَّه لا يُغْفَر لصاحبه إذا مات وهو مُستمِر على فِعله، ولم يُقلِع عنه، ويَتُب منه، وكان مِمَّن ضلَّ ضلالًا بعيدًا، حيث قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا }.

وثبَت عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلاَّ رَجُلٌ يَمُوتُ مُشْرِكًا)).

أخرجه أبو عُبيد في "الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه مِن الفرائض والسُّنن" (٤٩٥)، وأبو داود (٤٢٧٠)، وابن حِبَّان (٥٩٨٠)، والحاكم (٨٠٣٢)، والبَزَّار (٢٧٢٩-٢٧٣٠)، وغيرهم.

وصحَّحه: ابن حِبَّان، والحاكم، والذهبي، والألباني، والوادعي.

وقال الهيثمي: "رواه البَزَّار ورجاله ثقات"، وقال الشوكاني: "رجال إسناده موثَّقون".

وقال الحافظ ابن عبد البَر المالكي ـ رحمه الله ـ في كتابه "التمهيد" (٣٢/ ٢٩٨):

«مُقَيَّدٌ بالإجماعِ على أنَّ مَن مات مُشرِكًا فليس في المشيئة، ولكِنَّه في النار، وعذاب الله».اهـ

قلت:

وهُناك شِرك آخَر يَطرأ على العبادات، وهو مِن الشِّرك الأصغر، وهو الرياء، وذلك بأنْ يُرائِيَ العبد بالعبادة التي يقوم بها.

وهذا الرياء يُفسِد العبادة التي حصل فيها.

حيث أخرج علي بن حُجْرٍ السعدي في "حديثه عن إسماعيل بن جعفر المدني" (٣٨٤)، وأحمد في "المسند" (٢٣٦٣٦ و ٢٣٦٣٠)، واللفظ له، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٦٤١٢)، وغيرهم، عن محمود بن لَبيد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**)).

وصحَّحه: أبو عبد الله بن مُفلح.

وجوَّده: المُنذري، والبركوي الحنفي، والشوكاني، والألباني، وابن باز.

وحسَّنه: ابن حَجَر العسقلاني، والرُّباعي الصنعاني.

ونصَّ على ثبوته: مُقبل الوادعي.

وقال زين الدين العراقي: "رجاله ثقات"، وقال الهيثمي: "رواه أحمد ورجاله رجال الصَّحيح".

وأخرج مسلم (٢٩٨٥) عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: ((**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)).

ومَن عرَف خطورة الشِّرك الأكبر على العبادة، وعلى العبد، وعلى عموم البلاد والعِباد عرَف معه أنَّ أهمَّ المهمَّات التي يجب أنْ يتعلَّمها ويَعرفها هو:

التوحيد وناقضه الشِّرك.

ودَفعَه هذا العلم، ودفعته هذه المعرفة إلى أمرين:

الأوَّل: تعلُّم التوحيد، ومعرفة أنواعه، وأدلَّتِه، وما يتعلَّق بِه مِن مسائل وأحكام، لِيعمل بِه، ويكون مِن أهله المحقِّقين له.

والثاني: معرفة الشِّرك بأنواعه، وأسبابه، ووسائله، وأدلَّتِه، حتى لا يَقع فيه، فلا يُغفر له، ويَحبِط عمله، ويكون مِن أهل النار.

ومَن عَرَف التوحيد، وكان مِن أهله، وحقَّقه، فلابُدَّ أنْ يكون عنده خوف مِن مُضادِّه، ومُضعِفه، وهو الشِّرك بنوعيه، كما هو حال أئمة الموحِّدين كإبراهيم ـ عليه السلام ـ، حيث دعا ربَّه فقال: { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ }.

ولأنَّ مَن خاف مِن الشَّر لا يَسلم مِنه إلا بمعرفته، ثم اجتنابه.

وقد قال الإمام ابن تيمية – رحمه الله – كما في "مجموع الفتاوى" (١٠/٣٠١-٣٠٢):

«ولهذا كان الصحابة ـ ﷺ ـ أعظمَ إيمانًا وجهادًا مِمَّن بعدَهم، لِكمال معرفتهم بالخير والشَّر، وكمال محبَّتهم للخير، وبُغضهم للشَّر، لِمَا علِموه مِن حُسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقُبْح حال الكفر والمعاصي، ولهذا يُوجد مَن ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغِنى والصِّحة والأمْن مِمَّن لم يَذق ذلك.

ولهذا يُقال: "والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضِّدُّ"، ويُقال: "وبضِدِّها تتبيَّن الأشياء"، وكان عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ يقول: ((لستُ بِخِبٍّ، ولا يَخدعُنِي الخِبُّ)).

فالقلب السَّليم المحمود هو الذي يُريد الخير لا الشَّر، وكمال ذلك بأنْ يَعرف الخير والشَّر، فأمَّا مَن لا يَعرف الشَّر، فذاك نقصٌ فيه، لا يُمدح بِه».اهـ

وهذا هو سبب قول المُصنِّف ـ رحمه الله ـ:

[عرَفت أنَّ أهَمَّ ما عليك معرفة ذلك، لعلَّ الله أنْ يُخلِّصَكَ مِن هذه الشَّبكة، وهي الشِّرك بالله.].

وسمَّاها ـ رحمه الله ـ شَبَكةً، لأنَّ الشَّبَكة يُصطاد بِها، ويَقع فيها الصَّيد على حين غِرَّة.

والشِّرك بالله في عبادته قد أوقع الناسَ فيه دعاةُ أهلِ البدع والضَّلال مِن الشِّيعة الرافضة، والصُّوفية، وأضرابهم، وصادُوهم إليه، بما نَسجوه حوله مِن شُبَهٍ، وتلبيسات، وأحاديث ضعيفةٍ ومكذوبة، واستدلالاتٍ باطلة، وكذبٍ على الله ورسوله، وعلى أهل العلم والفِقه، وروَّجوا له باسم محبَّةِ آل بيت رسول الله ﷺ، وعِبادِ الله الصالحين، وأوليائِه المتقين، ونيل شفاعتهم.

ثم ختَم المُصنِّف ـ رحمه الله ـ هذه المُقدِّمة بقول:

[وذلك بمعرفة أربع قواعد ذَكرها الله تعالى في كتابه.].

وهـذا شُـروعٌ مِنـه ـ رحمـه الله ـ بتبيـين القواعـد الـتي تَحمِـي العبـد وتُخلِّصـه مِـن الشِّـرك بالله في عبادته، وشَبكةِ أهلِه ودعاته، وحبائلِهم، وتلبيساتهم، وتدليسِهم، وإضلالِهم، ومَكرهِم الكُبَّار.

فيذكُر ـ رحمه الله ـ القاعدة بأوضح عبارة، وأقصرِها، ثُمَّ يَذكر أدلَّتَها مِن القرآن العزيز.

وتتميَّز عامة كتب ورسائل المصنِّف ـ رحمه الله ـ، ومِنها هذه الرسالة بذِكر أدلَّة الشريعة، على ما يُقرِّره فيها مِن قواعد ومسائل، مع الإكثار مِنها.

وهذه المِيزة:

١ ـ تُكسِبُ القارئ لِكُتبه ورسائله القبولَ والطمأنينة، بأنَّ مسائلها مُقرَّرة بالنُّصوص الشِّرعية، ومشهورة فيها، ولم يأت بشيء جديد مِن عند نفسِه، ولا بعلمٍ أو قول جديد مُخترَع.

٢ ـ وتُكسِبُه أيضًا الثقةَ بمُصنِّفها، وأنَّه يَسير على جادة أهل العلم مِن السَّلف الصالح أهل السُّنة والحديث في تقرير العلم، وتوضيح مسائله، وتبيين أحكامه، إذ يُقرِّرون ذلك وِفْق أدلَّة القرآن والسُّنة النَّبوية، وما عليه الصحابة ـ ﷺ ـ، لا يَخرجون عن ذلك.

٣ ـ وتَكسِرُ باطل أهل البدع والأهواء الذين كذَبوا على هذا الإمام ـ رحمه الله ـ، وشوَّهوا دعوته، وتدمَغُه فإذا هو زاهق.

إذ سيقول كل عاقل نبيهٍ مُنصِفٍ مُريد للحق ومُعظِّم:

"قد قرأنا كُتب هذا الإمام فلم نَرَ فيها إلا كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، وكلام أئمة هذه الأُمَّة مِن الصحابة والتابعين، وغيرهم مِن الأئمة المقتدَى بِهم في الدِّين، ولم نَرَه يَدعُنا إلا إلى التَّمسُّك بما جاء في القرآن والسُّنة مِن عقائد وأحكام ومعاملات على طريقة السَّلف الصالح، وعلى رأسهم الصحابة ـ ﷺ ـ، ويحتجُّ علينا بها، ويُبيِّن خطأنا بها، ويُصحِّح معتقدنا بها.

وفي تأكيد هذه الميزة يقول العلامة مُقبل بن هادي الوادعي ـ رحمه الله ـ في كتابه "المصارعة" (ص:٤٠٠):

«أمَّا دعوة الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب فإنَّها دعوة مباركة، وأنت إذا قرأت في كتابه "كتاب التوحيد" تجده كما قلنا يَستدِل بآية قرآنية، وحديث نَبوي، سواء أكان في باب تعليق الحُروز والعزائم، أمْ كان في باب دعاء غير الله، أمْ كان في باب التحذير مِن بناء القِباب على القبور، وقد نفع الله بدعوته الإسلام والمسلمين».اهـ

وهذه القواعد الأربع التي ذَكرها المصنِّف ـ رحمه الله ـ في هذه الرسالة قد بسطها أكثر في كتابه الماتع النفيس: «كشف الشُّبهات»، واختصرها هُنا.

ووسَمها ـ رحمه الله ـ بالقواعد، لأنَّه يُرجع إليها في فَهم التوحيد ونقيضه الشِّرك، ويُعرَف بها الموحِّد مِن المشرِك، ويُبنى عليها فقه هذا الباب، وتَجمَع شَتاتَه وتُلخِّصه.

ثُمَّ قال الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ:

[القاعدة الأولى:

أنْ تعلمَ أنَّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّون بأنَّ الله تعالى هو الخالق الرَّزاق المُدبِّر، وأنَّ ذلك لم يُدخِلهم في الإسلام.

والدليل قوله تعالى: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ }.]

الشرح:

ذَكر المصنِّف ـ رحمه الله ـ هذه القاعدة العظيمة لِيُبيِّن السَّبب الذي لأجله بَعث الله رسوله محمدًا ﷺ إلى الناس، وعلى رأسهم المشركين مِن قبيلته قريش، وقبائل العرب الأُخرى.

وهذا السَّبب ليس هو كونهم لا يُؤمنون بأنَّ الله هو ربُّهم، ومالكهم، وخالقهم، ورازقهم، ومُدبِّر أمورِهم، ومُحييهم، ومُميتهم، والمتصرِّف فيهم وفي السموات والأرض بما شاء، بل هُم يؤمنون بذلك.

بدليل قوله سبحانه: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }.

وقوله ـ جلَّ وعزَّ ـ: { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) }.

وقوله ـ تبارك وتقدَّس ـ: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ }.

وقوله ـ تبارك اسمه ـ: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }.

إذن ما هو السبب الذي لأجله بَعث الله رسوله محمدًا ﷺ إلى الناس؟

والجواب:

أنَّ السَّبب هو:

كونهم يُشركون مع الله غيره في عبادته، حيث يَصرفون العبادة أو بعضها لغير الله مِن الملائكة، أو الأنبياء، أو الصالحين، أو الأصنام، أو الأحجار، أو الأشجار، أو غيرها.

فبُعِثَ رسول الله ﷺ لِيَنهَاهُم عن هذا الشِّرك بالله، والتشريكِ لغير الله مع الله في عبادته أو شيء مِنها، ويَأمُرَهُم بإفراد الله وحدَه بالعبادة، وصرفِ جميع العبادات لَه سبحانه وحدَه.

حيث قال ـ جلَّ وعلا ـ: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا }.

وقال ـ تبارك اسمه ـ: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ }.

وقال ـ عزَّ مِن قائل ـ: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }.

ولَمَّا وصَل أبو سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ إلى بلاد الشام، قُبيل إسلامه، دعاه ملك الرُّوم هِرقل إلى مجلسه، ثم سأله عن رسول الله ﷺ، وقال له: ((مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟))

فقال: ((يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ)).

رواه البخاري (٧).

ويَعني بقوله ﷺ: ((اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)).

أي: اصرفوا جميع عباداتكم لله وحدَه، ولا تُشركوا معه أحدًا مِن المخلوقين في شيء مِنها، لا في عبادة الدعاء، ولا عبادة النَّذر، ولا عبادة الطواف، ولا عبادة الذَّبح، ولا عبادة الصلاة، ولا عبادة الحج، ولا غيرها مِن العبادات.

وفي توضيح شِركهم بالله في عبادته، وإشراكِهم فيها غيره معه سبحانه، يقول الله تعالى لِنبيِّه الكريم محمدٍ ﷺ في سورة الجِن:

{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ }.

فنَهاه وزجَرَه ربُّه سبحانه في هذه الآيات الكريمات أنْ يُشرِك معه أحدًا في عبادة الدعاء، حيث قال له: { فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا }.

أي: لا تدعوا معه أيّ أحدٍ حتى ولو عظُم وجَلَّ بين الخلق، فكان ملَكًا مُقرَّبًا، أو نبيًّا مُرسَلًا، أو وليًّا صالحًا.

فصَدَع ﷺ بين أظهر أهل الشِّرك مِن قومه بإفراد الله تعالى وحدَه بعبادة الدعاء، حيث قال الله سبحانه عن ذلك: { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ } **أي**: رسوله مُحَمَّد ﷺ { يَدْعُوهُ } **أي**: يُفرده وحدَه بعبادة الدعاء { كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } **أي**: تجمَّعوا وتظاهروا عليه لِيُبطِلوا الحق الذي جاءهم بِه، ويُطفئوا نوره، وأعظمُ هذا النور وأكبرُه وأجلُّه:

أنَّ العبادة حق لله وحدَه، لا يجوز أنْ يُصرَف مِنها شيء لغيره، لا دعاء، ولا ذبح، ولا نذر، ولا طواف، ولا غير ذلك.

فأبى الله إلا أنْ يُتِمَّ نوره، ويُتِمَّ هذا الأمر الذي بَعث لأجله رسوله، ويَنصرَ نبيَّه على مَن ناوأه.

ثُمَّ أمَره سبحانه أنْ يقول لهم: { قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا }.

فدَّلت هذه الآية الجليلة:

على أنَّ صَرف عبادة الدعاء لغير الله شِرك بِه سبحانه.

وقال ـ تبارك وتقدَّس ـ في سورة فاطر:

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ }.

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } **أي**: له مُلك كل شيء، له مُلك السماوات والأرض، وما فيهنَّ، وما بينهُنَّ.

{ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ } **أي**: هؤلاء الذين تدعونهم معه، مِن الملائكة، أو الرُّسل والأنبياء، أو الأولياء والصالحين، أو غيرهم، ما هو حالهم: { مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ } والقِطمير هو: الغِشاء الأبيض الرَّقيق الذي يُحيط بنواة التمرة.

ثُمَّ قال سبحانه بعد إخباره أنَّهم ما يملكون مِن قِطمير: { إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ } لأنَّهم ما بين جماداتٍ لا تَعقل، أو أموات لا يَدرون عمَّن يدعوهم، أو ملائكة مشغولين بطاعة ربِّهم، وحتى لو سمعوا فما هي النتيجة: { وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ }.

ثُمَّ قال سبحانه في شأن هؤلاء الذين يُشركون مع الله غيره في عبادة الدعاء، ومَن يدعونهم مع الله: { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ }.

فحَكم سبحانه في هذه الآية:

بأنَّ دعاءهم مع الله غيره شِرك وكفر.

ثُمَّ ختم هذه الآيات بقوله سبحانه: { وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } **أي**: لا أحدَ يُنبِّئك أصدق مِن الله العليم الخبير بحُكم دعاء غيره معه، وأنَّه شِرك وكُفر، وبحالِ هؤلاء المدعُوّين معه، وبيانِ ضعفهم، وأنَّهم أيضًا سيتبرؤون يوم القيامة ويُعادُون مَن دعاهم معه سبحانه.

وبِمَّا تقدَّم وغيره:

يُعلَم أنَّ قولَ وزَعم بعض مَن يَنسِب نفسه إلى الإسلام، وتَراه يُصلِّي ويصوم ويَحج ويُزكِّي ويقرأ القرآن.

وهو مع ذلك يَصرِف بعض العبادات لغير الله، كالدعاء، والاستغاثة، والنَّذر، والذَّبح، والطواف، أو غيرها مِن العبادات.

وتَسمعه يدعو غير الله قائلًا:

"فرِّج عنَّا يا رسول الله"، "مَدَد يا بَدوي"، "أغثنا ياجَيلاني"، "شيئًا لله يا رِفاعِي"، "احمنا ياعيدروس"، "رُدَّ عنَّا ريحكَ يا شاذلي"، "أجرنا مِن النار يا حسين"، " اعطينا الولد يا فاطمة الزَّهراء".

ثُمَّ هو يَزعم بعد ذلك:

أنَّه مُسلِم مُوحِّد، وليس بمُشرِك، ولا مِن أهل الشِّرك.

ويقول لأهل التوحيد والسُّنة:

كيف تحكمون علينا بالشِّرك، وبأنَّنا قد وقعنا في ما وقع فيه الكفار في زمَن النبي ﷺ، ونحن لَسْنَا مثلَهم، نحن نؤمِن بالله، وأنَّه الخالق الرَّزق المحيي المميت المالك المدبِّر.

ويُقال ردًّا عليهم، واختصارًا لِمَا تقدَّم:

إنَّ الكفار في زمن النَّبي ﷺ كانوا يؤمنون بما ذَكرتم، ولم يكونوا بهذا الإيمان مُسلمين، بل كفارًا ومشركين، بنصِّ القرآن، ونصِّ السُّنة النَّبوية، وإجماع أهل العلم.

واحتاجوا إلى أنْ يُدعوا إلى الدخول في الإسلام، فبعَث الله لهم رسولًا، وهو مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، وأنزَل عليهم كتابًا، وهو القرآن الكريم، وقاتلهم رسول الله ﷺ وأصحابه على تَركِ شِركهم هذا بالله ربِّهم.

وقد قال سبحانه عن هذا الإيمان وأهله: **{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ }**.

فعندهم الإيمان بالربوبية، ولكن عندهم الشِّرك في العبادة.

وأخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٢٠٣٤) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ((**{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } تَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُ، فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ**)).

وأخرجه نحوه ابن جَرير الطبري في "تفسيره" (١٩٩٥٤ و ١٩٩٦٩) مِن طريقين آخَرين يَثبت بهما ويتقوى.

وأخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٢٠٣٥)، وابن جَرير في "تفسيره" (١٩٩٦١-١٩٩٦٦) عن مجاهد أنَّه قال: ((**{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } إِيمَانَهُمْ قَوْلُهُمُ: اللَّهُ خَالِقُنَا، وَيَرْزُقُنَا، وَيُمِيتُنَا**)).

وهو أثَر صحيح له طُرق عديدة بأسانيد صحيحة.

وصحَّ عن قتادة أنَّه قال: ((**{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } فِي إِيمَانِهِمْ هَذَا، إِنَّكَ لَسْتَ تَلْقَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْبَأَكَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَرَزَقَهُ، وَهُوَ مُشْرِكٌ فِي عِبَادَتِهِ»**)).

أخرجه ابن جَرير في "تفسيره" (١٩٩٦٧- ١٩٩٦٨).

وثبت نحو ذلك أيضًا عن جماعة آخرين مِن التابعين.

فمَن حصل مِنه هذا الإيمان، مع إشراكه غير الله معه في عبادته، حُكم عليه بالشِّرك، وأنَّه مُشرِك، بدَلالة هذه الآية، وغيرها.

والإقرار بتوحيد الرُّبوبية، وهو توحيد الله بأفعاله، بالإيمان بأنَّه الخالق الرَّازق المحيي المميت المالك المدبِّر، لا يُدخِل الناس اليوم في الإسلام، كما لم يُدخِل الكفار الذين كانوا في زمَن النَّبي ﷺ في الإسلام.

وحصول الصلاة والصوم والزكاة والحج وقراءة القرآن وذِكر الله وغيرها مِن العبادات، مع وجود الشِّرك بالله في عبادته حتى ولو كان في عبادة واحدة لا يَنفع، ولا يُدخِل في الإسلام، لأنَّ وجود الشِّرك يُحبِط جميع أعمال العبد الصالحة، لقول الله تعالى: { وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

وقوله سبحانه: { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }.

بل إنَّ كفار قريش كانوا يعلمون معنى كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله"، **وأنَّه**: "لا معبود بحق تجوز عبادته إلا الله وحدَه".

فـ"**لا إله**" نَفي، وهي تنفي استحقاق جميع المعبودات مع الله للعبادة أو شيء مِنها.

و "**إلا الله**" إثبات، وهي تُثبِت استحقاق الله وحدَه فقط للعبادة بجميع أنواعها.

وأنَّ هذه الكلمة تقتضي:

"إفراد الله وحدَه بجميع العبادات"، وأنَّ مَن صرَف شيئًا مِن العبادات لغير الله فقد خالف مُقتضاها.

ففهموا مِنها: أنَّه يجب عليهم ترْك عبادة غير الله، وأنَّه لا يجوز لهم أنْ يُشركوا مع الله أحدًا في شيء مِن عبادته، ولِهذا امتنعوا عن النُّطق بها، لأنَّ المطلوب هو: النُّطق بهذه الكلمة: "لا إله إلا الله"، مع العمل بما دلَّت عليه مِن معنى، وهو: ترْك صرْف العبادات لغير الله تعالى، وإفراده سبحانه بها.

وقد أوضح الله ـ جلَّ وتقدَّس ـ ذلك عنهم في سورة "ص" فقال سبحانه: { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }.

وقال ـ تبارك اسمه ـ عنهم في سورة الصافات: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ }.

فمعنى "لا إله إلا الله" بنصوص الشَّرع، وإجماع أهل السُّنة والحديث، وكلام أهل اللغة والتفسير، راجع إلى توحيد الألوهية والعبادة.

وأيضًا حديث ابن عباس، عن معاذ بن جبل ـ ﷺ ـ الصَّحيح يؤكد ذلك.

حيث أخرج البخاري (٧٣٧٢) أنَّ النبي ﷺ قال لِمعاذ بن جبل ـ ﷺ ـ حين بعثه إلى اليمن: ((إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى)).

وفي لفظ آخر عند البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩):((فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –)).

وفي لفظ للبخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٩) أيضًا: ((إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)).

وقال الإمام ابن جَرير الطبري ـ رحمه الله ـ في "تفسيره" (٢١/ ٤١٠ أو ٢٠/ ٣٥٧):

«{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } **يقول**: لا معبود بحقٍّ تجوز عبادته، وتصلح الأُلُوهَة له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته، فادعوه أيُّها الناس مُخلِصين له الدِّين، مُخلِصين له الطاعة، مُفرِدين له الأُلُوهة، لا تُشركوا في عبادته شيئًا سواه، مِن وثَنٍ، وصنم، ولا تجعلوا له نِدًّا ولا عَدْلًا».اهـ

بينما أهل الشِّرك مِن أهل هذا الزمان يُفسِّرون معنى كلمة "لا إله إلا الله": بتوحيد الربوبية.

فيقولون إنَّ معناها:

"لا خالق ولا رازق إلا الله أو لا قادر على الاختراع إلا الله".

وهذا المعنى يجعل كفار قريش موحِّدين، لأنَّهم بنص القرآن في مواضع عديدة مِنه كانوا يُقرّون ويؤمنون بربوبية الله، وأنَّه الخالق الرازق المحيي المميت المدبِّر، كما تقدَّم.

فكيف يَفهم مَن يَدعِّي الإسلام التوحيد، وناهيك أنْ يُحقِّقه، ويَعرف الشِّرك، وناهيك أنْ يَجتنبه، وكفار قريش أعلم مِنه بمعنى "لا إله إلا الله".

وقد قال العلامة سليمان بن عبد الله ـ رحمه الله ـ في كتابه "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد" (ص: ٥٦):

«وقال الطِّيبي: الإله فعَّال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، مِن ألَه إلاهَة، **أي**: عبَد عبادة، وهذا كثير جدًّا في كلام العلماء.

وهو إجماع مِنهم: أنَّ الإله هو المعبود، خلافًا لِما يَعتقده عُبَّاد القبور، وأشباههم، في معنى الإله، **أنَّه**: الخالق، أو القادر على الاختراع، أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنَّهم إذا قالوها بهذا المعنى، فقد أتوا مِن التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا مِن عبادة غير الله كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم في الكُربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم في المِلمَّات، وسؤالهم الشفاعة عند ربِّ الأرض والسموات، إلى غير ذلك مِن أنواع العبادات، وما شعروا أنَّ إخوانهم مِن كفار العرب يشاركونهم في هذا الاقرار، ويعرفون أنَّ الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع مِن العبادات».اهـ

وقال العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ في كتابه "تقريب التدمرية" (ص: ١٢١ -١٢٣ ـ مختصرًا):

«ويظنون أنَّ هذا هو التوحيد المطلوب، وأنَّ هذا معنى "لا إله إلا الله"، فيجعلون معناها: "لا قادر على الاختراع إلا الله".

ومعلوم أن هذا خطأ مِن وجهين:

الأوَّل: أنَّ هذا الذي قرَّروه قد أقرَّ بِه المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ، فإنَّهم لم يجعلوا لله شريكًا في أفعاله.

ومع هذا لم يكونوا موحِّدين، بل هُم مشركون بدَلالة الكتاب والسُّنة والإجماع المعلوم بالضرورة مِن دِين الإسلام.

الثاني: أنَّ تفسيرهم "لا إله إلا الله" بهذا التفسير الذي ذَكروه، **أي**: أنَّه لا قادر على الاختراع إلا الله، يَقتضي أنَّ مَن أقرَّ بأنَّ الله وحدَه هو القادر على الاختراع دون غيره، فقد شهد أنْ لا إله إلا الله، وعصَم دمه وماله.

ومعلوم أنَّ تفسيرها بهذا المعنى باطل مُخالف لِما عرَفه المسلمون مِنها، فإن تفسيرها الصَّحيح: أنْ لا معبود حق إلا الله، هذا هو الذي يعرفه المسلمون مِن معناها، بل والمشركون.

فتبيَّن بذلك أنَّ المشركين أعلم وأفقه بمعنى "لا إله إلا الله" مِن هؤلاء المتكلِّمين، وأنَّ غاية ما يُقرره هؤلاء المتكلِّمون مِن التوحيد: توحيد الربوبية الذي لا يُخلِّص الإنسان مِن الشِّرك، ولا يُعصَم بِه دمه وماله، ولا يَسلَم بِه مِن الخلود في النار.

وقد سلك هذا المسلك طوائف مِن أهل التصوف، فكان غاية ما عندهم من التوحيد: أنْ يَشهد المرء أنَّ الله ربُّ كل شيء، ومليكه، وخالقه.

ومعلوم أنَّ هذه الغاية هي ما أقرَّ بِه المشركون مِن التوحيد، وهي غاية لا يكون بها الرجل مسلمًا، فضلًا عن أنْ يكون مِن أولياء الله تعالى وسادة خلقه».اهـ

قلت:

ومِمَّن يُفسِّر "لا إله إلا الله" بهذا المعنى الباطل المضَاد لِنصوص الشريعة مع الصوفية وأهل الكلام مِن الأشاعرة وأضرابهم أيضًا:

جماعة التبليغ، وهي أيضًا جماعة صوفيه معاصرة، وقادتها وكثير مِن أتباعها قد بايعوا عددًا مِن الطُّرق الصوفية.

وخلاصة هذه القاعدة:

أنَّ الإقرار بتوحيد الربوبية وحدَه لا يُدخل في الإسلام، لأنَّ كفار قريش كانوا يُقِرون بِه، بنصِّ آيات القرآن المتعدِّدة، وهُم كفار بدَلالة القرآن والسُّنة والإجماع، ولِكفرهم بَعَث الله فيهم رسوله محمدًا ﷺ، وأنزَل عليهم كتابه القرآن.

ثُمَّ قال الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ:

[القاعدة الثانية: أنهَّم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القُربة والشفاعة.

فدليل القُربة قوله تعالى: { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }.

ودليل الشفاعة قوله تعالى: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }.

والشفاعة شفاعتان: شفاعة مَنفِية، وشفاعة مُثبَتة.

فالشفاعة المَنفِية: ما كانت تُطلَب مِن غير الله فيما لا يَقدر عليه إلا الله.

والدليل قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

والشفاعة المُثبَتة هي: التي تُطلَب مِن الله.

والشافع مُكرَم بالشفاعة، والمشفوع له: مَن رضِي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }.].

الشرح:

بعد أنْ قرَّر المُصنِّف ـ رحمه الله ـ:

أنَّ العبادة حقٌّ لله وحدَه، وأنَّ صرْفها أو صرْف شيء مِنها لغيره سبحانه شِرك، وبيَّن نوع شِرك القوم الذين بُعِث فيهم رسول الله ﷺ، وبُعِث لإزالته دعوةً وجهادًا، وأنَّه في باب توحيد العِبادة، المشهور بتوحيد الألوهية، أتَى بهذه القاعدة، ودلَّل عليها مِن نصوص القرآن، لِتعلُّقِها بما تقدَّم، ولِسببٍ مُهمٍّ جدًّا يتعلَّق بأهل الجاهلية، وأهل زمانِه، ومَن قبله، ومَن في زماننا أيضًا.

والسَّبب هو:

أنَّ أهل هذا الزَّمان، وزمَن المصنِّف ـ رحمه الله ـ، وقبله، إذا أنكرَت عليهم صرْفهم بعض العبادات كالدعاء والاستغاثة والاستعانة وطلب الغوث والفرَج والمدد، والذَّبح، والنَّذر، وغيرها مِن العبادات، للرُّسل والأنبياء، أو لأولياء الله الصالحين، وبيَّنت لَهم أنَّ فِعلهم هذا شِرك وكفر، وتكاثَرت في النَّهي عنه نُصوص القرآن والسُّنة النَّبوية.

أجابوك:

بأنَّهم أهل ذُنوب وآثام كثيرة، وفي إيمانهم ضَعف كبير ونقص، والأنبياء والأولياء مكانتهم عند الله عظيمة، وجاههم كبير، فيرجون بذلك أنْ يكونوا واسطة في تقريبهم مِن ربِّهم سبحانه، وأنْ يَشفعوا لهم عنده.

وإذا تأمَّلْت جوابهم هذا، وجدت أنَّه نفس الجواب الذي أجاب بِه مُشركوا قريش وقبائل العرب الذين بُعِث فيهم رسول الله ﷺ، حين أنكَر عليهم ﷺ صرْفهم العبادة أو شيء منها لغير ربِّهم سبحانه، وأمرَهم بإفراد الله وحدَه بجميع العبادات.

ودليلُ أنَّ ذلك هو جوابهم مِن القرآن قول الله ـ عزَّ وجل ـ: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }.

وقوله ـ تبارك وتقدس ـ: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

فقولهم: { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }، وقولهم: { هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } ظاهران في أنَّهم أرادوا مِن صرْفهم العبادة أو شيء مِنها لَهم تقريبَهم مِن الله، ويرجون بها شفاعتَهم لَهم عنده سبحانه.

بل وأخبَر سبحانه أنَّ هؤلاء الذين يُعبَدون مع الله بتشريكهم معه في عبادة الدعاء:

عِبادٌ مخلوقون كالدَّاعين لَهم مع الله، فقال ـ جلَّ وعلا ـ: { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ }.

ووظيفة العِباد هي العبادة، وليست أنْ يُعبَدوا مع الله، وهذا هو ما فعلوه، حيث لم يَصرفوا عباداتهم إلا لله وحدَه، يرجون بذلك رحمته، ويخافون عذابه، ويطلبون القُرب مِنه، كما قال ـ جلَّ وعزَّ ـ عنهم وعمَّن يدعوهم في سورة الإسراء: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا }.

ولَمَّا كان أكثر ما يَتحجَّج بِه مِن يَحصل مِنه الشِّرك في عبادة الله، بصرفها أو صرْف شيء مِنها للأنبياء، أو الأولياء، أو لهَما جميعًا، هو رجاء شفاعتهم لَهم عند الله يوم القيامة، ذَكر المصنِّف ـ رحمه الله ـ عدَّة أمور تتعلق بالشفاعة، مَن عرفها عَرف سُخْف عقول هؤلاء، وشديد جهلهم، وبُعدَهم عن العمل بالقرآن والسُّنة النَّبوية، وأنَّه لا يَحصل لَهم ولن يُحصِّلوا بهذه الأفعال إلا نقيض قصدهم، ولن يَزدادوا مِن الله إلا بُعدًا، وسَيَكفُر يوم القيامة بعبادتهم هذه الأنبياء والأولياء.

فتطابق حال المشركين مِن أهل زمان المصنِّف ـ رحمه الله ـ في باب شِرك الإلهية والعبادة مع حال المشركين في زمَن النبي ﷺ مِن جهة الفِعل والمقصد، بدَلالة القرآن مع الواقع.

وشِرك الجميع كان في توحيد العبادة المشهور بتوحيد الألوهية.

وتعدَّدت عندهم الآلهة التي يَصرفون العبادة لَها، فمِنهم مِن يصرفها للملائكة، ومِنهم مَن يصرفها للأنبياء، ومِنهم مَن يصرفها للصالحين، ومِنهم مَن يصرفها للأصنام والأحجار، ومِنهم مَن يصرفها للنار، ومِنهم مَن يصرفها لغيرهم.

وأمَّا الإله الخالق الرازق المحيي المميت المالك المدبِّر فهو واحد.

حيث قال سبحانه في شأنهم: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ }.

فكانوا إذا قيل لَهم قولوا: "لا إله إلا الله" يَعرفون أنَّ معناها: أفرِدوا الله وحدَه بجميع العبادات، واتركوا عبادة غيره.

ولكنهم استكبروا وأبَوا إلا البقاء على صَرف العبادة لآلهتهم، بل ويتبجَّحون في الجواب، حيث قال سبحانه عنهم: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا }.

وكلُّ مَن دعا مع الله غيره، سواء دعا ملَكًا أو نبيًّا أو وليًّا صالحًا أو صنمًا أو شجرًا أو نارًا، أو دعا مَن دعا مِن الخلق، فإنَّه قد جعله إلهًا له مع الله سبحانه، شاء أمْ أبَى، رضِي أمْ لم يَرض، عقِل أمْ لم يَعقِل.

ولهذا لَمَّا ذَكر الله ـ جلَّ وعلا ـ عباده الصالحين في سورة الفرقان، قال في صفاتهم: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ }.

وقال في سورة القصص: { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }.

فالذي يَدعو البدوي قد جعله له إلهًا آخَر مع الله، وكذلك مثله الذي يدعو الجَيلاني، أو التِّيجاني، أو العيدروس، أو الشاذلي، أو الميرغني، أو الزَّيلعي، أو الرِّفاعي، أو ابن علوان، أو نفيسة، أو رابعة العدوية.

أو يدعو رسول الله ﷺ، أو الحسين بن علي بن أبي طالب، أو العباس ين عبد المطَّلب، أو زينب بنت الحسين.

شاءوا أمْ أبَوا، هذا حُكم الله تعالى في كتابه القرآن في كل مَن دعا معه غيرَه مِن الخلق.

والأمور التي أشار إليها المُصنِّف ـ رحمه الله ـ في باب الشفاعة ثلاثة:

الأمْر الأوَّل:

أنَّ الشفاعة مُلك لله وحدَه، وما كان مُلكًا لله، فإنَّه يُطلَب مِنه سبحانه وحدَه، وليس مِن غيره، حتى ولو كان نبيًّا مُرسَلًا، أو مَلكًا مُقرَّبًا، أو وليًّا صالحًا.

حيث قال تعالى: { أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا }.

وقال ـ جلَّ وعلا ـ: { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ }.

الأمْر الثاني:

أنَّ مَن أذِن لَه الله تعالى بالشفاعة مِن الملائكة أو الرُّسل والأنبياء أو الأولياء والصالحين أو غيرهم، لا يَشفعون لأحد إلا إذا رضِي الله عن المشفوع له، والله لا يرضَى إلا عن الموحِّد الذي لا يَصرف العبادة إلا له وحدَه سبحانه، وأمَّا مَن أشرَك معه غيره فيها أو في شيء مِنها فلا يَرضَى عنه أبدًا.

حيث قال ـ جلَّ وعزَّ ـ: { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }.

وقال ـ جلَّ وعلا ـ: { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى }.

وقال تعالى: { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ }.

وقال ـ تبارك وتقدَّس ـ: { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ }.

وإذْنُه سبحانه لِبعض عباده بالشفاعة إنَّما هو مِن باب التكريم لهم، وليس تمليكًا للشفاعة.

الأمْر الثالث:

أنَّ مِن الشروط التي يجب أنْ تتوفر في الشافع حتى يأذن الله له بالشفاعة، ويَقبلها مِنه، وفي المشفوع لَه حتى يَرضَى الله بالشفاعة لَه ويأذن:

أنْ يكونا جميعًا مِمَّن لا يُشرِك مع الله غيره في شيء مِن عبادته.

لأنَّ الله لا يَرضى عن صاحب هذا الشِّرك، بل هو موعود بالخلود في النَّار، ومُحرَّمة عليه الجنَّة، وجميع عباداته حابطة، ولا يَغفر الله لَه.

حيث قال سبحانه: { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا }.

وقد دَلَّ على أنَّ شفاعة النَّبي ﷺ يوم القيامة لا ينالها إلا مَن لم يُشرك مع الله في عبادته أحدًا، قوله ﷺ الصَّحيح: ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا)).

أخرجه مسلم (١٩٩)، مِن حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

ودَلَّ أيضًا على أنَّ الله لا يَقبل شفاعة ودعاء المصلِّين الأربعين على الميِّت المسلم إلا إذا كانوا ممَّن لا يُشرِك مع الله أحدًا في عبادته:

قول النَّبي ﷺ الصَّحيح: ((مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ)).

أخرجه مسلم (٩٤٨)، مِن حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وقال تعالى: { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ }.

وقال - عزَّ وجل -: { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ }.

والخلاصة:

أنَّ الشفاعة قد ذَكرها الله تعالى في كتابه القرآن العزيز، وهي شفاعتان:

الأولى: الشفاعة المُثبَتة أو الجائزة.

وهي الشفاعة التي تُطلب مِن الله تعالى مالِكها.

كأن يدعوَ الطالب فيقول: اللهم شفِّعه فيَّ يوم القيامة ملائكتَك أو رُسلَك أو عبادكَ المؤمنين، اللهم اجعلني مِمَّن يَدخل في شفاعة الشافعين يوم القيامة.

فصاحبها لم يَصرف عبادة الدعاء إلا لله وحدَه، حيث لم يطلب شفاعة الشافعين لَه يوم القيامة إلا مِن ربِّه سبحانه.

وقِيل لهذه الشافعة مُثبَتَة أو جائزة لأنَّ الشريعة أثبتَت جوازها، وأثبتَت حصولها يوم القيامة إذا كان الشافع والمشفَّع فيه موحِّدَين لا يُشركان بالله شيئًا ولا أحدًا، وأذِن الله لَهما، وثبَت نفعها يوم القيامة لِمَن حصلت لَه.

الثانية: الشفاعة المَنفِيَّة أو المُحرَّمة.

وهي الشفاعة التي تُطلب مِن غير الله تعالى فيما لا يَقدر عليه إلا الله.

كطلبها مِن الموتى، كأنْ يدعوَ الطالب الآن فيقول: يا رسول الله اشفع لِي يوم القيامة عند الله، يا بدوي اشفع لِي عند الله أنْ يرزقني الولد، يا أولياء الله الصالحين اشفعوا لي عند الله أنْ يَشفيَني مِن المرض.

وحقيقتها أنَّها دعاءٌ وصرْفٌ لعبادة الدعاء لغير الله تعالى، وتشريكٌ لِمخلوقين مع الله في شيء مِن عبادته، وهذا شِرك بالله وكُفر.

وهذه الشفاعة هي التي كان عليها المشركون في زمَن الرسول ﷺ، وقبله.

وكانوا يَعتقدون أيضًا أنَّهم بصرفهم العبادة أو شيء مِنها لمعبوداتهم مِن ملائكةٍ وأنبياء وصالحين وغيرهم، سيحصلون على شفاعتهم، وستكون عبادتهم لهم سببًا في نيلهم شفاعتهم.

وقِيل لِهذه الشفاعة مَنفيَّة أو مُحرَّمة لأنَّ الشريعة نفَت أنْ تَحصل لِمَن طلبها، لأنَّه قد أشرَك مع الله غيره في عبادته، ومِن شروط الشفاعة أنْ يكون المشفَّع فيه موحِّدًا لا يُشرِك مع الله غيره في شيء مِن عبادته.

وحُرِّمَت لأنَّ حقيقتها أنَّها شِرك بالله في عبادته، ومَنفِيٌّ نفعها يوم القيامة لِمَن فعلها.

وأمَّا طلب الإنسان بالقول مِن غيره الحَيِّ الحاضِر أو الكتابة إليه إنْ كان غائبًا أنْ يَشفع لَه عند آخَر في أمْرٍ مِن أمور الدنيا وهو قادر على الشفاعة لَه، فجائز بالقرآن، والسُّنة النَّبوية، والإجماع.

وخلاصة هذه القاعدة:

أنَّ عبادة الكفار الذين بُعِث فيهم رسول الله ﷺ لآلهتهم كانت لأجل وساطتهم لهم، وشفاعتهم عند الله، وتقريبهم مِنه، وليس لأنَّهم يخلقون ويرزقون ويُدَبِّرون، وينفعون ويَضُرُّون، ويتصرفون في الكون.

ثُمَّ قال الإمام مُحَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ:

[والقاعدة الثالثة:

أنَّ النَّبي ﷺ ظهرَ على أُناسٍ مُتفرّقين في عباداتهم، مِنهم: مَن يَعبد الملائكة، ومِنهم: مَن يَعبد الأنبياء والصالحين، ومِنهم: مَن يَعبد الأشجار والأحجار، ومِنهم: مَن يَعبد الشمس والقمر.

وقاتلهم رسول الله ﷺ، ولم يُفرّق بينهم.

والدليل قوله تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ }.

ودليل الشمس والقمر، قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }.

ودليل الملائكة، قوله تعالى: { وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً }.

ودليل الأنبياء، قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }.

ودليل الصالحين، قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ }.

ودليل الأشجار والأحجار، قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى }.

وحديث أبي واقِدٍ الليثي ﷺ قال: ((خرجنا مع النَّبي ﷺ إلى حُنين ونحن حُدَثاء عهد بكُفر، وللمشركين سِدْرة يَعكفون عندها، ويَنوطون بها أسلحتهم، يُقال لها ذات أنواط، فمَرَرنا بسِدرةٍ فقلنا: يا رسول الله اجعل لَنَا ذات أنواط، كما لَهم ذات أنواط)) الحديث.].

الشرح:

أشار المُصنِّف ـ رحمه الله ـ في كلامه هذا الى أمرين:

الأمْر الأوَّل:

أنَّ النَّبي ﷺ ظهر في زَمَنٍ كان أهله متفرقين ومتنوعين في معبوداتهم، وبُعث إليهم جميعًا:

١ ـ لأمرِهِم بصرْف جميع عباداتهم لإلهٍ واحد، وهو الله ـ عزَّ وجَّل ـ خالق هذه المعبودات، وخالق جميع المخلوقات العلوية والسُّفلية.

٢ ـ ونَهيِهم عن الشِّرك بالله الذي كانوا عليه، حيث كانوا يَصرفون عباداتهم للمخلوقات التي ذُكِرت، وغيرها.

حيث قال سبحانه آمِرًا وزاجِرًا: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا }.

وقال ـ جلَّ وعلا ـ في شأن نبيِّه ﷺ مع قومه: { وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ }.

وقال ـ تبارك وتقدَّس ـ: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

وقال ـ عزَّ شأنه ـ: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }.

ولَمَّا وصَل أبو سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ إلى بلاد الشام، قُبيل إسلامه، دعاه ملك الرُّوم هِرقل إلى مجلسه، ثم سأله عن رسول الله ﷺ، وقال له: ((مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟))

فقال: ((يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ)).

رواه البخاري (٧).

وحين دعا النَّبي ﷺ الناس إلى صَرف العبادة لإله واحد، وهو الله سبحانه، قالوا مُنكرين: { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }.

وقد ذَكَر المصنِّف ـ رحمه الله ـ أيضًا في هذه القاعدة:

بعض مَن كانوا يَعبدونهم مع الله، كالأنبياء، والملائكة، والصالحين، والشمس والقمر، والأحجار والأشجار.

ودلَّلَ على عبادتهم لِهؤلاء ببعض آيات القرآن الكريم، وحديث نَبويٍّ صحيح.

الأمْر الثاني:

أنَّ رسول الله ﷺ قد ساوى بين هؤلاء القوم الذين بُعِث إليهم، وتنوَّعت معبوداتهم، ولم يُفرِّق بينهم في الحُكم، فكلهم مُشرِك، وكلهم أُمِرَ ﷺ بدعوته إلى عبادة الله وحدَه، ونَهِيه عن الإشراك بِه في شيء مِن عبادته، وقاتلَ ﷺ جميعَهم على ذلك.

حيث قال سبحانه آمِرًا له ولِمَن معه مِن المؤمنين: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }.

والمُراد بالفتنة في هذه الآية:

الشِّرك بالله في عبادته، هكذا قال أهل التفسير.

ولَم يَذكر الإمام ابن جَرير الطبري ـ رحمه الله ـ في "تفسيره" (١٣/ ٥٣٧-٥٤٤) عند هذه الآية غير هذا التفسير.

ثُمَّ أخرج ـ رحمه الله ـ (١٣/ ٥٣٨ ـ رقم:١٦٠٧٨) بإسناد صحيح، عن قتادة أنَّه قال: (({ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } يقول: قاتلوهم حتى لا يكون شِرك { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } حتى يُقال: "لا إله إلا الله"، عليها قاتل نَبيُّ الله ﷺ، وإليها دَعا)).

ولم يَذكر الفقيه ابن الجوزي الحنبلي ـ رحمه الله ـ في كتابه "زاد المسير في علم التفسير" (٢/ ٢١١) اختلافًا عند هذه الآية.

حيث قال:

«قوله تعالى: { وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ } **أي**: شِرك.

وقال الزَّجاج: حتى لا يُفتن الناس فتنة كُفر، ويَدُلّ عليه قوله تعالى: { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ }».اهـ

وقال العلامة صِدِّيق خان الحسيني البُخاري القِنَّوجي ـ رحمه الله ـ في كتابه "فتح البيان في مقاصد القرآن" (٥/ ١٧٤-١٧٥):

«{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } أي: شِرك، قاله ابن عباس، وقيل بلاء قاله الحسن، وقد فسَّرها جمهور السَّلف بالكفر».اهـ

قلت:

وقول الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: "بلاء"، ليس بقول آخَر، بل مُراده بلاء الشِّرك والكُفر، وفتنة أهل التوحيد فيه.

ولِهذا عدَّه غير واحد مِن المفسِّرين في عداد مِن فسَّروا الفتنة بالشِّرك، كما فعل الإمام ابن جرير الطبري في "تفسيره"، وغيره.

بل قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في "تفسيره" (٤/ ٥٦-٥٧):

«وقال الضَّحاك، عن ابن عباس: (({ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ } يعني: حتى لا يكون شِرك)).

وكذا قال: أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدي، ومُقاتِل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم.

وقال مُحَمَّد بن إسحاق: بلغَني عن الزُّهري، عن عُروة بن الزُّبير وغيره من علمائنا: (({ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ } حتى لا يُفتن مسلم عن دينه)).

وقوله: { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } قال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: ((يُخلَص التوحيد لله)).

وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيْج: (({ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } أنْ يُقال: لا إله إلا الله)).

وقال مُحَمَّد بن إسحاق: ((ويكون التوحيد خالِصًا لله، ليس فيه شِرك، ويَخلع ما دونه مِن الأنداد)).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (({ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } لا يكون مع دينكم كفر)).

ويَشهد له ما ثبَت في الصَّحيحين عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: ((أُمِرت أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مِني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ)).

وفي الصَّحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: ((سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتِل شجاعة، ويُقاتِل حَمِيَّة، ويُقاتِل رِيَاءً، أيُّ ذلك في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ فقال: "مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ")).

وقوله: { فَإِنِ انْتَهَوْا } أي: بقتالكم عمَّا هُم فيه مِن الكُفر، فكُفُّوا عنه، وإنْ لم تعلموا بواطنهم، { فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }.

كما قال تعالى: { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }.

وفي الآية الأُخرى: { فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }».اهـ

وقال العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ في "تفسيره" (ص: ٣٢١):

«وأمَّا خطابه للمؤمنين عندما أمرَهم بمعاملة الكافرين، فقال: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ } أي: شِركٌ وصَدٌّ عن سبيل الله، ويُذعنوا لأحكام الإسلام، { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } فهذا المقصود مِن القتال والجهاد لأعداء الدِّين، أنْ يُدفَع شرُّهم عن الدِّين، وأنْ يُذَبَّ عن دِين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان».اهـ

وقال الإمام ابن أبي زَمَنِين المالكي ـ رحمه الله ـ في "تفسيره" (٢/ ١٧٧):

«{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ } شِرك، وهذه في مُشْرِكِي العرب خاصَّة { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } يَعني: الإسلام».اهـ

قلت:

وأراد المصنِّف ـ رحمه الله ـ مِن تقرير هذين الأمرين أنْ يُبيِّن لَنا ولِمَن يَقرأ رسالتَه هذه أو يَستمع لِقراءتها مِن أهل بلاده، وما حولها، وعموم الناس، وأهل زمَنه، ومَن يأتي بعد ذلك: أنَّ نصوص الشريعة مِن آيات قرآنية وأحاديث نبوية قد بيَّنت وحكَمت بأنَّه لا فرْق بين مَن يَصرف العبادة أو شيء مِنها لمِخلوق صالح، له فضل ومكانة عند الله، أو لِمخلوق ليس كذلك كجِنٍ أو إنسانٍ فاسِدَين، أو جمادات كالأصنام والأحجار، أو حيوانات كالبقر، أو نباتات كالأشجار وبعض الزُّهور، أو نار، أو غيرها مِن المخلوقات، فكلهم مُشرِك بالله، وكلهم تنطبق عليه أحكام أهل الشِّرك، لأنَّ العبادة حقٌّ خالِص لله وحدَه، وبهذا قَضَى وحَكم، وأرسل رسوله محمدًا ﷺ، وجميع الرُّسل.

حيث قال سبحانه: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ }.

وقال ـ جلَّ وعلا ـ: { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }.

وقال ـ تبارك اسمه ـ: { قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ }.

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }.

وقال تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ }.

وقد قال المصنف ـ رحمه الله ـ في كتابه النافع الماتع "كشف الشُّبهات" (ص:٥١-٥٣) عند الكلام على هذه القاعدة:

«وعَرَفت أنَّ التوحيد الذي جَحدوه هو توحيد العبادة، الذي يُسمِّيه المشركون في زماننا "الاعتقاد"، وكانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلًا ونهارًا .

ثمَّ مِنهم: مَن يدعو الملائكة، لأجل صلاحهم، وقُربهم مِن الله لِيشفعوا له، أو يدعو رجلًا صالحًا مِثل اللَّات، أو نبيًّا مثل عيسى.

وعَرَفت أنَّ رسول الله ﷺ قاتلَهم على هذا الشِّرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحدَه، كما قال الله تعالى: { فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا }، وقال: { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ }.

وتَحقَّقت أنَّ رسول الله ﷺ قاتلَهم لِيكون الدعاء كلُّه لله، والنَّذر كلُّه لله، والاستغاثة كلُّها بالله، وجميع أنواع العبادات كلُّها لله.

وعَرَفت أنَّ إقرارهم بتوحيد الرُّبوبية لم يُدخِلهم في الإسلام، وأنَّ قصدَهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يُريدون شفاعتَهم والتقرُّب إلى الله بذلك هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم.

عرفت حينئذ التوحيد الذي دَعت إليه الرُّسل، وأبَى عن الإقرار بِه المشركون».اهـ

وأمَّا النُّصوص الشرعية التي ذكرها المصنِّف ـ رحمه الله ـ في تقرير تنوع معبودات الناس زمَن النَّبي ﷺ، وأنَّهم كانوا يَصرفون عبادتهم أو بعض عبادتهم لمخلوقات مُختلفة، فهي:

أوَّلًا: قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }.

وقد دَلَّ:

نَهيُه تعالى عن السُّجود للشمس والقمر، وأمْرُه بالسجود لَه وحدَه، أنَّه قد وُجِدَ مَن يَعبدهما معه، ومِن العبادات التي كانت تُصرف لَهما عبادة السُّجود.

وثانيًا: قوله تعالى: { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }.

وقد دلَّت هذه الآية:

على أنَّ هناك مَن اتَّخذ الملائكة والأنبياء أربابًا وآلهة مع الله، بصرفه العبادة أو شيئًا مِنها لَهم.

ومِثل هذه الآية قوله ـ تبارك وتقدَّس ـ: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }.

وثالثًا: قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }.

وقد دلَّت هذه الآية:

على أنَّ عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ نبيٌّ، وأنَّ مِن الناس مَن اتخذَّه إلاهًا مع الله، فأشرَكه معه في عبادته.

ومِثل هذه الآية قوله ـ تبارك وتقدَّس ـ: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

ورابعًا: قوله تعالى: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا }.

وقد دلَّت هذه الآية:

على وجود مِن أشرَك مع الله الصالحين في بعض العبادات، كعبادة الدعاء.

وأبانت أيضًا:

أنَّ هؤلاء الصالحين الذين عُبِدوا مع الله فصُرِفت لَهم عبادة الدعاء، لا يَصرفون عبادة الدعاء إلا لله ربِّهم وحدَه، رجاء رحمته، وخوفًا مِن عذابه.

وخامسًا: قوله تعالى: **{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى }**.

واللَّات: صخرة، **والعُزَّى:** شجرة، **ومَنَاة:** صَنم.

واللَّات في الأصل ليس بحَجَر، بل كان رجلًا يُحسِن إلى الحُجَّاج القادمين مِن جهة الطائف بإطعامهم، فيَلُتُّ لهم السَّويق ويُطعمهم إيَّاه، وكان يجلس بجوار أو على صخرة كبيرة، فلمَّا مات عبدوه، ومع مرور الأيام تحولَّت العبادة إلى هذه الصَّخرة.

وكانت اللَّات في الطائف.

وأمَّا العُزَّى، فكانت لِقريش، وكانت هذه الشجرة في غابة فيها شيطانة.

وأمَّا مَنَاة، فكانت تُعظِّمها الأوْس والخزْرَج، وكانت في طريق الحُجَّاج بين مكة والمدينة.

وكانت جميعها في الجاهلية تُعبد مع الله، ويُشرَك بها في عبادته، فتُّصرف لَها العبادة أو شيء مِنها.

وسادسًا: حديث أبي واقِد الليثِي ـ ﷺ ـ قال: ((**خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ**)) الحديث.

وهو ظاهر في عبادة كفار الجاهلية للأشجار، بدليل عُكوفهم عليها، وتعليق أسلحتهم عليها، يرجون نفعها وبركتها.

وحديث أبي واقد ـ ﷺ ـ قد أخرجه أحمد (٢١٨٩٧ و ٢١٩٠٠)، والطيالسي (١٤٤٣)، وابن أبي عاصم في "السُّنة" (٧٦)، والترمذي (٢١٨٠)، والمروزي في "السُّنة" (٣٧-٤٠)، والنسائي في "السُّنن الكبرى" (١١١٨٥)، وغيرهم.

وصحَّحه: الترمذي، وابن حِبَّان، وابن حَجَر العسقلاني، وابن حَجَر الهيتمي، والمناوي، والألباني، وغيرهم.

وخلاصة هذه القاعدة:

أنَّه لا فرْق في صرْف العبادة أو شيء مِنها لِغير الله بين أنْ تُصرَف لِعبدٍ صالح كالملائكة، والرُّسل والأنبياء، والأولياء والصالحين، أو عبدٍ فاسق أو كافر، أو شيطان، أو صَنَم، أو شجر، أو نار، أو حيوان كالبقر، أو كوكب، أو نَجم.

فصرفها لَهم أو لِغيرهم شِرك، وفاعل ذلك مُشرِك.

لأنَّ الحُكم بالشِّرك ليس له علاقة بنوع المعبودات، وصلاحها مِن عدمه، بل تعلُّقه بصرْف العبادة التي هي حقٌّ خالِص لله لغيره، وتشريكه فيها مع الله.

ولهذا ذَكر الله في القرآن اتخاذ الملائكة والأنبياء والصالحين أربابًا وآلهة في عدَّة آيات، مِمَّا يَدُلُّ على أنَّه لا أثَر لاختلاف المعبودات التي تُصرَف لَها العبادة مع الله.

فقال ـ جلَّ وعزَّ ـ: { قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ }.

وقال ـ تبارك وتقدَّس ـ: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ }.

وقال سبحانه: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

وقال ـ جلَّ وعلا ـ: { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }.

وجاء في حديث أخرجه أحمد (٧٣٥٨)، وغيره، عن النبي ﷺ أنَّه قال: ((اللهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)).

ونصَّ على ثبوته: ابن تيمية، وغيره.

وصحَّحه: الألباني، وأحمد شاكر، وغيرهما.

وهو نصٌّ صريح في أنَّ قبر أفضل الناس - وهو النبي ﷺ - يَصير وثنًا إذا عُبِد مع الله.

ويؤكِّد كالآيات السابقة عدم أثَر اختلاف المعبودات على الحُكم بالشِّرك على مَن صَرف العبادة أو شيء مِنها لغير الله، كائنًا مَن كان المصروفة لَه.

ثُمَّ قال الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ:

[القاعدة الرابعة: أنَّ مُشرِكِي زماننا أغلظ شِركًا مِن الأوَّلين، لأنَّ الأوَّلين يُشركون في الرَّخاء ويُخلِصون في الشِّدة، ومُشركوا زمانِنا شِركهم دائم في الرَّخاء والشِّدة.
والدليل قوله تعالى: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ }.]

الشرح:

مِن الأمور المُتعلِّقة بالشرك:

أوَّلًا ـ أنَّ الشِّرك بعضه أغلظ مِن بعض.

وثانيًا ـ أنَّ بعض أهله أغلظ وأكثر شِركًا مِن بعض.

وهذا الأمْران معلومان مِن نصوص الشريعة، وتاريخ الناس، وواقعنا اليوم.

وثالثًا ـ أنَّ أهل الشِّرك يتفاوتون بسببه في عذاب النار، وسبب ما دونه مِن ذُنوب.

وقد قال الفقيه أبو عبد الله شمس الدِّين القُرطبي المالكي ـ رحمه الله ـ في كتابه "التذكرة بأحوال الموتَى وأمور الآخرة" (ص: ٨٨٦):

«ولا شك في أنَّ الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد عُلِم مِن الكتاب والسُّنة».اهـ

وقد ذَكر المصنِّف ـ رحمه الله ـ في هذه القاعدة أحد هذه الأمور المتقدِّمة، ودلَّلَ عليه بنصٍّ مِن القرآن.

فذكَر أنَّ أهل الشِّرك في زمانه ـ وهو الحال أيضًا في زمنِنَا ـ كالشِّيعةِ الرافضةِ، وغُلاةِ الصُّوفية، وأضرابهم:

أغلظ شِركًا في باب العبادة مِن أهل الشِّرك الأوَّلِين الذين بُعِث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس في عُموم الكفر.

لأنَّ كفار الجاهلية كانوا يُنكرون رسالة النبي مُحَمَّد ﷺ، وكذَّبوه وآذوه وقاتلوه، ويُنكرون البَعث، وعندهم كفريات أُخرى.

وبعد تقرير ذلك، وجدت شيخنا العلامة مُحَمَّد أمان الجامي ـ رحمه الله ـ ذَكر مِثله، ونبَّه عليه في شرحه على "القواعد الأربع" (ص:٩٦-٨٩)، فالحمد لله على فضله.

ووجْه غِلظ شِركهم:

أنَّ قلوبَهم حال الشدائد وعند الرَّخاء، وفي العُسر واليُسر، مُعلَّقة بمخلوقينَ مِثلَهم، يُشرِكونَهم مع الله في عبادة الدعاء.

فذاك حينها يَدعو فيُنادي: "يا حسين، يا زهراء، يا عباس"، وآخَر يُنادي: "يا بدوي، يا عيدروس، يا جَيلاني، يا رِفاعِي"، وتلكَ تُنادي: يا زينب، يا رابعة، يا شاذِلي، يا تِيجانِي.

فشِركهم إذَنْ دائم في الحالين.

بينما كان أهل الشِّرك الأوائل حال الشدائد يَدعون ربَّهم وخالقَهم وحدَه، فإذا كَشفَ ما بِهم رجعوا إلى إشراك غيرِه معَه في عبادته، فدعَوه مع الله، حيث قال سبحانه عنهم في سورة العنكبوت: **{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ }**.

وقال ـ عزَّ شأنه ـ في سورة الأنعام: **{ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ }**.

وقال ـ تبارك وتقدَّس ـ في سورة الإسراء: **{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا }**.

وقال ـ جلَّ وعلا ـ في سورة الأنعام: { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ }.

وقد أَلْزَمَ الله ـ جلَّ وعزَّ ـ في هذه الآيات وأشباهها المشركين بإخلاصِهم لَه وحدَه في حالة الشِّدة والعُسر، وتركِهم لِدعاء غيره، بأنْ يَتركوا إشراكهم معَه غيرَه في عبادته أو شيء مِنها.

وقد ذَكر المصنِّف ـ رحمه الله ـ هذا القاعدة أيضًا في كتابه "كشف الشُّبهات" (ص:٧٧ و ٧٩) فقال:

«فاعلم أنَّ شِرك الأوَّلين أخَفُّ مِن شِرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أنَّ الأوَّلين لا يُشركون، ولا يدعون الملائكة، أو الأولياء، أو الأوثان مع الله إلا في الرَّخاء، وأمَّا في الشِّدة فيُخلِصون لله الدعاء.

الأمْر الثاني: أنَّ الأوَّلين يدعون مع الله أُناسًا مُقرَّبين عند الله.

إمَّا أنبياء، وإمَّا أولياء، وإمَّا ملائكة، أو يدعون أشجارًا أو أحجارًا مُطيعة لله ليست بعاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أُناسًا مِن أفسَق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يَحكون عنهم الفجور، مِن الزِّنا، والسَّرقة، وترْك الصلاة، وغير ذلك.

والذي يَعتقد في الصالح أو الذي لا يَعصِي، مثل: الخشَب والحَجَر أهون مِمَّن يَعتقد فيمَن يُشاهَد فِسقه وفساده، ويُشهَد به».اهـ

وقال أيضًا (ص:٧٨):

«فمَن فَهِم هذه المسألة التي وضَّحها الله في كتابه، وهي:

أنَّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله، ويدعون غيره في الرَّخاء، وأمَّا في الضُّرِّ والشِّدَّة فلا يدعون إلا الله وحدَه، لا شريك لَه، ويَنسون ساداتِهم.

تبيَّن لَه الفرْق بين شِرك أهل زماننا وشِرك الأوَّلين.

ولكنْ أين مَن يَفهم قلبُه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا، والله المستعان».اهـ

قلت:

ومَن قرأ كُتب الشِّيعة الرافضة، وغُلاة الصوفية، وأتباعِهم مِن أهل الطُرق، كالشاذِلية، والقادِرية، والنَّقشَبندِية، والسَّنوسِية، والأحمدية، والرِّفاعية، والمحمدية، والبدوية، والدُّسوقية، وغيرها، وجد صِدق ما قاله المصنِّف ـ رحمه الله ـ، بل سيجد عندهم شرِكيَّات وكُفريَّات عديدة أكبر حتى مِمَّا ذُكِر عن كُفَّار قريش.

وخلاصة هذه القاعدة:

أنَّ المشركين المتأخِّرين أغلظ في شِرك العبادة مِن المشركين الأوائل الذين بُعِث فيهم رسول الله ﷺ، لأنَّ إشراكهم مع الله غيره في عبادة الدعاء يقع في الحالين جميعًا، في حال الرَّخاء، وفي حال الشِّدة، بينما كان الأوائل في حال الشِّدة كخشية الغرَق في البحر لا يدعون إلا الله وحدَه، كما جاء في القرآن في آيات عِدَّة.

وبهذا أكون قد أنهيت شرح هذه "القواعد الأربع"، وأسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أنْ ينفع بها الشارح والقارئ والمستمع، إنَّه جواد كريم، واسع الفضل والعطاء، سميع مُجيب.